

٢ - الأمثال العامية العربية والفلسفة الشعبية

بقية ما نشر في العدد الماضي

وفي الأمثال العامية منطق سليم ، نجد فيه الاستدلال ولكن بصورة غير التي عهدناها ، والقضايا وأحكامها في ثوب غير الذي تعودناه ، والتعريف والتقسيم والتصنيف والقياس والتركيب والتحليل والاستقراء ولكن في قالب غير الذي ألفناه واعتدنا النظر فيه .

وفيها الحكمة التي إذا قيلت أوجزت ودلت ، وإذا أقيمت كفت وأدلت ، وفيها الحكمة التي تمنطق الموقف وتفهم المستمع ، فلا يعم أن يطأطأ رأسه حياء من دالاتها وإعجاباً بقدرتها ، وتقديراً لجمالها ، وخشوعاً لهيبتها ، وخضوعاً لحكمها . وهكذا الحكمة في كل زمن ، وفي كل بيئة ، وفي كل ظرف ، وفي كل موقف ؛ سواء إذا جاءت في مثل عامي ، أو مثل فصيح ، أو في كلام مرسل ، أو كلام منظوم .

وفيها فلسفة الوجود ، وفلسفة الحياة ، وفلسفة الآمال والأطباع ، وفلسفة المثل العليا في الخلق ، وفلسفة المثل العليا في الأعمال الاجتماعية ، وفيها الفلسفة الصامتة في الردود على السفهاء ورد الشدة بمثلها ، أو ردها بإغضاء وإعراض وعفو كريم . وفيها فلسفة الحقيقة الواقعة ، وترديد الواقع الخجل في صورة تدعو لتذكره بعد إغضاء أو إهمال ، وفيها فلسفة السعادة واللذة ، وفلسفة الصفات والفضائل والذائل ، وفيها فلسفة الروية والإمعان ، وفلسفة الطبيعة والخيال ، وفيها وفيها مما لا يحصره عد ، ولا يفي به ذكر ، ولا يوفيه تذكير ولا يؤديه كلام أو أداء .

وهنالك عهد ازدهار وانتشار لبعض الأمثال العامية العربية ، كما أن هنالك عهد دخول بعضها ، وذلك يرجع إلى أحداث الأيام والسنين ، وما يجد فيها وما تستلزمه هذه الجدة

من أمثال تطابقها وهذا كشأن بعض الكلمات التي تتداول بكثرة في ظروف معينة ، أو في بيئة معينة ، وغيرها كلمات تهمل ويبور (موديلها) في سوق اللسان ، ففي أيام الحرب مثلاً تتزعم في التداول الكلامي كلمات مناسبة ، كلمات : النار والدم والقنابل والخنديق وصفارة الإنذار والغارة وماشابه ذلك وفي أيام شهر العسل يتذكر العروسان كلمة (العسل) ويتذكرانها كثيراً ، أو أنها تكون معروفة ، ومهمة كل الأهمية في هذا الشهر ولو لم ينطق بها ، والناس في المسجد يذكرون (الله) كثيراً ، والفصل الدراسي في مدرسة من المدارس في درس الجغرافية تتردد في أرجائه كثير من الكلمات الخاصة : كالتضاريس والمناخ والرياح العكسية والأعاصير والجنادل ، وفي درس الكيمياء تتردد ألفاظ كالسحاحة والخبار والأنبوبة ؛ وهكذا في كل درس خاص ، وكلمة (المسمار) حية بالنسبة للنجار وخاملة بالنسبة لأستاذ الأدب أو لبائع اللبن ، وعلى هذا فكل صنف من الأمثال يتداول بكثرة في بيئة خاصة ، أو في زمن معين ، أو لظروف معينة .

ولكن الذي لاحظته أن كثيراً من الأمثال العامية تتداول في كثير من البلاد العربية ، فالمثل العامي الذي يستعمل في مصر قد يستعمله الكويتيون ، والمثل الذي يستعمله الكويتيون قد تستعمله البحرين ، والذي يتداوله البحرين قد يكون سارياً في العراق وهكذا ، وإن لم يستعمل في هذه البلاد بنفس النص ، فإنه يستعمل بنفس المعنى ونفس الأداء .

ومن هذا نستطيع أن ندرك أن هنالك وحدة في الفلسفة والحكمة والشعبية بين البلاد العربية ، ووحدة

إن من البيان لسحرا

(بقية المنشور على صفحة ١٧)

إنها داعية لم يحن وقتها إلا الآن ، فتبسم القاضى وقال :
عفا الله عنك يا أبا السائب ! لقد أتعبك هذا الصوت ،
كما أتعبني من قبلك صوت أبى سعيد .

لقد طفت سبعاً قلت لما قضيتها

ألا ليت هذا لاعلى ولا ليا

قال الراوى : فسألت القاضى عن ذلك ، فقال : كان
أبو سعيد مولى قأيد مولى عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله
عنه ، قد جمع إلى روعة الشعر حسن الصوت ، وتقوى الله ،
فأصبح مقبول الشهادة ، معدلاً ، تقدم إلى مجلسي يوما
للشهادة . فقلت له : أنت القائل يا أبا سعيد :

لقد طفت سبعاً قلت لما قضيتها

ألا ليت هذا لاعلى ولا ليا

فقال . أى اعمر أهلك ، وإني لأدبجه إدماجاً من لؤلؤ
فرددت شهادته في ذلك المجلس ، فقام مغضباً وحلف أن
لا يشهد عندى أبداً ، وقد شق ذلك على أهل المدينة ،
وأنكروا على هذا ، وقالوا : عرضت حقوقنا للهلاك ،
وأموالنا للتلف ، لعلمنا بتعديل أبى سعيد وتقديمه عندك ،
وعند من سبقك من قضاة ، فندمت بعد ذلك على رد شهادته
ووجهت إليه من يسأله الحضور والشهادة ، فامتنع لليمين
التي لزمته ، فصرت أسير إليه ، إن ادعى أحد شهادته ،
وأنا رجل ثقال يشتد على المشى ، فكنت أقول لخلصائى :
لقد أتعبني هذا الصوت كثيراً .

قال الراوى وكنا نسير سيراً ، لا يشق على القاضى
ولما أشرفنا على البلد اتخذ القاضى طريقاً ، واتخذت
سبيلاً وهو يقول : عفا الله عنك يا أبا السائب ، لقد أتعبك
هذا الصوت ، كما أتعبني من قبلك ذلك الصوت .

عبد اللطيف الصالح

المدرسة المباركية

(الكويت)

في مشارب التفكير ، ومن هذا جاء القول بأن الشرق
شرق ، والغرب غرب ، وباختلاف الشرق عن الغرب
والغرب عن الشرق .

والشعب إذا سرت الثقافة بين أوساطه استطاع أن
يحول أمثلة العامية إلى أسلوب جديد يحمل المعنى أو الفهم
إن رأى أن يدع نفس اللفظ ، وليس من عيب أن يستعمل
الرجل المثقف المثل العامى بنصه وأسلوبه ، ولكن الذى
أريده أن يأخذ المثقف هذا المثل ويهذب لفظه ، أو يعدل
نطقه ويصحح التلفظ به فقط ، فإن من الأمثال العامية
ما عبارته صحيحة في اللغة ، ولكنها خاطئة في النطق بها
بسبب اللهجة ، وعلى هذا فمن السهل على المتعلم أن يتخذ
هذه الخطوة البارعة في استغلال تلك الأمثال العامية الهامة
ثم إن المثقف يستطيع أن يستعمل الأمثال العربية الفصحى
في كلامه ، بل ويستطيع أن يستشهد بالشعر العربى أو يذكر
فخواه بأسلوبه الشعبى إن كان يكلم العامة ، وبأسلوبه
الفصيح إن كان يتكلم مع الخاصة .

وقد أخطأ الحكماء الذين أرادوا حكم بلاد لم يدرسوها
ولم يطلعوا على تقاليدها ومعتقداتها ولم ينغمروا ويعرفوا
الكثير عن فلسفتها ، فالذى يريد أن يحكم الشعب
أو يوجه الشعب أو يصادق الشعب ، فأول ما يجب عليه
أن يدرس فلسفة الشعب ، وتستلزم منه هذه الدراسة أن
يدرس الأمثال العامية أولاً لأنها مصدر أول لتلك الفلسفة
وأن ينغمر في الوسط الشعبى ليلم بكل تافه وكل عظيم
وكل دقيق وكل كبير .

فإن لم يقم بذلك وإن جهل أن الأمثال العامية
والفلسفة الشعبية هي مفتاح الشعب ، فلن يستطيع الحكم
ولا التوجيه ولا المصادفة ولا الفخار ولا الاختلاط
ولا النجاح . . .

أحمد طه السنوسى